مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

تقويم تجربة الحوار بين المسلمين والنصارى

وضوابط ذلك في ظل حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب

كتبه : د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

كلية الشريعة وأصول الدين، جامعة القصيم، عنيزة

E.mail: qadisa@yahoo.com

الأعمال الخيرية

Benevolent Act Mabarrat

تقويم تجربة الحوار بين المسلمين والنصارى وضوابط ذلك
في ظل حملات التنصير والدعوة إلى الحوار والتقارب ﷺ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، القائلُ سبحانه: {إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ} [آل عمران: ١٩]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، القائلَ: (**والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**) رواه مسلم. أما بعد:

فمنذ قرابة نصف قرن تدور رحى نازلة في فناء المسلمين، ألقتها بين ظهرانيهم الدوائر الكنسية الغربية، الممثلة بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومجلس الكنائس العالمي، وما يرتبط بهاتين المرجعيتين من معاهد ومراكز. تلك هي نازلة الدعوة إلى (تقارب الأديان).

وقد تسمَّت هذه الدعوة بمسميات متفاوتة عبر العقود المنصرمة:

١- ففي عقد الستينيات، والسبعينيات الميلادية كانت تسمى (التقارب الإسلامي المسيحي).

٢- وفي الثمانينيات، لُطِّفت إلى (الحوار الإسلامي المسيحي) دفعاً لتهمة التلفيق بين الأديان.

٣- وفي التسعينيات، اتسعت الدائرة في ظل الحديث عن التطبيع مع اليهود، واتفاقيات أوسلو، لتصبح (حوار الديانات الثلاث) أو (الأديان الإبراهيمية).

٤- ومع هبوب رياح العولمة، والرغبة في ضم الديانات الوثنية، في مطلع الألفية الثالثة، جرى

الحديث عن (حوار الحضارات):

وليس الشأن في (الحوار)! فنحن - المسلمين - أسعد الناس بالحوار، بل نحن أصحاب المبادرة إلى الحوار؛ فقد أمرنا ربنا أن نبادئ أهل الكتاب به، فقال: {قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤]، وأدَّبنا بأدب الحوار، فقال: {وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ} [العنكبوت:٤٦]، وإنما الشأن في أهداف الحوار ومضمونه.

ومقصودنا في هذا البحث تقويم هذه التجربة التي خاضها بعض أهل الإسلام مع النصارى خاصة، ضمن السياق العقدي، والإرث التاريخي للعلاقات الإسلامية النصرانية، وفي ظل حملات التنصير المستمرة، والهجمات المتجددة على حرمات الإسلام. والله الموفق.

أساليب النصارى في مواجهة الإسلام

لقد كان ظهور الإسلام وانتشاره السريع في القرن السابع الميلادي صدمة عنيفة للكنائس النصرانية المختلفة التي تهيمن على شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وما جاورها، فقد تهاوت معاقل النصرانية العريقة، ومهد المسيح عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل، أمام الفاتحين الجدد من أصحاب العمائم، رعاء الشاء والإبل، الضاربين في تيه الجزيرة العربية لقرون بعيدة، وفي تيه الشرك والوثنية والتخلف لقرونٍ أبعد. وفي مدةٍ تقل عن مائة عام تمكن المسلمون من إخضاع جميع السواحل الشرقية، والجنوبية، والغربية، للبحر الأبيض المتوسط. وفي مدةٍ تزيد على المائة قليلاً بلغوا أعماق أوروبا النصرانية في جنوب فرنسا. (وهكذا كان الإسلام يتوسع على نحوٍ مندفع مخلفاً، في الحقيقة، صدماتٍ هائلة تستعصي على التصور)[1]. كما عبر أحد الكتاب الغربيين. ويكفي لتصور عمق الصدمة أن أربعاً من بين خمس عواصم دينية لدى النصارى تحولت إلى حواضر إسلامية؛ وهن: بيت المقدس، والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية! ولم يبق بأيديهم سوى الخامسة؛ روما.

---

(1) انظر: الشخصية العربية في الجدال المسيحي مع الإسلام. دانيل ساهاس. مجلة الاجتهاد (٢٨/ ١١١).

والصدمة الكبرى التي تفوق إخضاع الأرض وضمها لدار الإسلام، كانت تتمثل في خضوع القلوب لدعوة الحق، ودخول الناس في دين الله أفواجاً. كما وعد الله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ} [الصف: ٩]، فـ (في مرحلة لاحقة، ومع الرسوخ السياسي واللاهوتي للدين الإسلامي، وتنامي النزعات والاتجاهات الانتقادية للمسيحية، تحولت الكتلة الأساسية لمسيحيي الشرق الأدنى إلى الإسلام)[1]، كما يعترف كاتب آخر.

وربما ظنت الدولة البيزنطية لأول وهلة أنها أمام زوبعة عارضة نشأت بسبب انفجار سكاني، وضيق معيشي، حاق بأعراب الجزيرة، سرعان ما تخبو جذوته ويخمد لهيبه، لافتقار القوم لأسس التنظيم والتخطيط الذي يحفظ مكاسبهم.

وربما ظنت الكنيسة الأرثذوكسية، وغيرها من الكنائس المحلية الأخرى أنها أمام همج رعاع لا يرتقون في تفكيرهم إلى آفاق الثقافة الهلنستية[2]، فلا تملك تقاليدهم البدوية الصمود أمام الفلسفة النصرانية العريقة.

---

(1) الإسلام والمسيحية. أليكسي جورافسكي. (١٧٨).

(2) الهلنستية أو الهيلينية Hellenism: الثقافة الناشئة من امتزاج الفلسفة اليونانية بثقافات حوض البحر.

ولكن هذه الظنون من المؤسستين الرسمية والكنسية تهاوت، كما تهاوت جحافلهم أمام إيمان الفاتحين المسلمين، ومتانة ووضوح عقائدهم.

ولم تشأ كبرياء الكنيسة النصرانية المصطنعة أن تذعن للحق، كما لم تشأ الإمبراطورية البيزنطية أن تذعن للأمر الواقع، ومن ثم فقد اتسمت العلاقات بين المسلمين والنصارى بالعداء المستمر طوال التاريخ، كما أن العلاقة بين الإسلام والنصرانية المحرفة اتخذت نفس الطابع، ولم يكن هناك وجود لما عُرف أخيراً باسم «التقريب» أو «الحوار» من الجانبين، بالصفة التي تمخضت عنها النصرانية في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي.

ويصف المستشرق الروسي إليكسي جورافسكي هذه العلاقة التاريخية في جانبيها السياسي والعقدي بالعبارات التالية: (إن المجابهة العسكرية ـ السياسية بين هاتين الديانتين ـ أو قل بين هاتين الحضارتين ـ منذ بدء ظهورهما المتجاور، ووصولاً إلى القرن العشرين كانت هي الطابع المسيطر على علاقاتهما الأخرى، ـ بما في ذلك العلاقات الدينية ـ الأيديولوجية. وبودنا التأكيد في هذا السياق أن ترسيخ الإسلام وتوطيد أركانه العقائدية في سوريا، ومصر وشمال أفريقيا سحبا من المسيحية النصف الغني بثرواته من المجال الجغرافي الحضاري لشاطئ البحر المتوسط.إن فتح المسلمين إسبانيا وصقلية، والحملات الصليبية إلى فلسطين، واستيلاء الصليبيين على القدس، وثأر صلاح الدين الأيوبي وانتصاره عليهم، وطرد العرب ـ المسلمين من أسبانيا، وسقوط

القسطنطينية، وهجوم الأتراك العثمانيين على مناطق البلقان، وتمرد الشعوب الإغريقية والسلافية، كل هذه المصادمات والمجابهات العنيفة ألبست رداء الدين، والحرب من أجل تعزيز راية الإيمان ضد «الكفرة»[١].

لقد احتاجت النصرانية إلى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، بدءاً من القرن السابع إلى القرن العشرين حتى تبلغ مرحلة «الحوار». وبين التنافر والتقارب برزت في الفكر النصراني ممارسات متنوعة في مواجهة الإسلام في جانبه العقدي، والعملي، يمكن تحديدها بما يلي:

أولاً: أسلوب التشويه والتضليل:

وقد ولد هذا الأسلوب في وقتٍ مبكر، لمواجهة موجات الفتح الإسلامي والاعتناق الجماعي لدين الإسلام. ومن أشهر من أرسى قواعده قسيسٌ دمشقي عرف باسم «يوحنا الدمشقي» المتوفى سنة ٧٥٠م، وقد عاش هو وأبوه منصور بن سرجون في أكناف أمراء بني أمية. وألف عدة مؤلفاتٍ ضمنها القدح في الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه القرآن. فالإسلام عنده ليس دين إبراهيم عليه السلام، بل هو مؤذِن بالمسيح الدجال. والرسول ﷺ واحد من أتباع بدعة آريوس، لا يعرف من العهدين القديم والجديد إلا ما ضحلت قيمته، والقرآن نتاج لأحلام اليقظة، كما ينتقد إجراءات الزواج والطلاق في الشريعة[٢].

---

(1) الإسلام والمسيحية (٣٦ ـ ٣٧).

(2) انظر مقالة: (الشخصية العربية في الجدل المسيحي مع الإسلام) داينيل ساهاس مجلة الاجتهاد: (٢٨/ ١٠٩ ـ ١٣٦).

إن هذا القسيس المضلل، الذي يصفه النصارى بـ «القديس»، يبوء بإثم إشاعة هذه الافتراءات التي صدت كثيراً من النصارى في الشرق والغرب عن الوقوف على حقيقة الإسلام. يقول إليكسي جورافسكي: (إذا كنا نتفق على واقعة أن التصورات الأوربية عن الإسلام تشكلت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد، فإننا يجب أن نشير إلى حقيقة أن هذه التصورات تكونت في كثير من جوانبها وخطوطها الكبرى على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية. وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي، المتوفى سنة ٧٥٠م من أكبر الدراسات المسيحية الشرقية عن الإسلام.

والواقع أن التصورات المتكونة عن الإسلام كبدعة مسيحية، مرتدة، ومنشقة، وعن محمد كنبي مزيف، انتقلت من مسيحيي سوريا إلى البيزنطيين، ومنهم إلى الأوربيين)[1].

وللمرء أن يتخيل ما يمارسه القسس الحاقدون الذين يعيشون خلف الحدود في أرجاء أوروبا البيزنطية، ثم الرومانية، حيث لا يعلمون عن الإسلام وعقيدته وشريعته وتطبيقه سوى ما يتلقفون من إنتاج نظرائهم الذين يتميزون غيظاً وحسداً في المشرق الإسلامي، ثم يضيفون إليه ما تبلغه أوهامهم المريضة، وخيالاتهم الفاسدة من أساطير وحكايات مسفة. وهذا ما حدث بالفعل في أوروبا، طوال القرون الوسطى. فقد رُوجت العديد من الخرافات والتهم السخيفة

(1) الإسلام والمسيحية (٧٠ ـ ٧٣).

عن الإسلام، وعن شخص نبينا محمد ﷺ نعف عن ذكرها إكراماً له وتوقيراً، مما حدا بباحث غريب معاصر أن ينتقدها بإنصاف قائلاً: (وللحقيقة، يجب القول أن تلك الأساطير المختلقة تمثل سخرية مأساوية، لأن النبي «محمد» الذي حارب أكثر من أي مخلوق آخر عبادة الأوثان، والذي حطم جميع أصنام الكعبة، يتحول في تصور المسيحيين إلى «صنم يؤلهه أتباعه» الذين يطلقون عليهم ازدراءً واحتقاراً لقب «عبيد سارة» أو «أبناء الجارية»)[1].

ومن صور هذا التشويه الإعلامي ما حكاه ابن الأثير، رحمه الله، في أعقاب تحرير بيت المقدس من الصليبيين: (وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا، وحشدوا حتى النساء)[2]. وهذا يذكر بالرسوم الدنمركية المسيئة إلى نبينا ﷺ.

ثانياً: أسلوب المجادلة العقلية وإثارة الشبهات:

ورائد هذا المسلك هو الراهب الفرنسي (بطرس المبجَّل) ــ كما يصفه النصارى ـ عاش في الفترة ١٠٩٤م ـ ١١٥٦م، وشغل منصب

(1) الإسلام والمسيحية (٧٧)، وانظر أيضاً ما جاء في (٦٧، ٧٤ ـ ٧٦).

(2) الكامل في التاريخ. ابن الأثير، عز الدين، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى (١٤١٧هـ ١٩٩٧م) (١٠/ ٦٩).

رئيس كهنة دير كلوني، وقد عاصر قيام الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٦م والثانية ١١٤٥م، وأدرك فشل المسلك العدواني العسكري في تحقيق الأهداف النصرانية. ومن المعروف أن دير كلوني الذي ينتمي إليه بطرس المبجل ـ عندهم ـ كان له دورٌ بارز في تاريخ النصرانية، فيما عرف بـ «الإصلاح الكلوني» وعلى وجه الخصوص في تأجيج الروح الصليبية في حرب الاستعادة الأسبانية Reconquista ، ولكن الفترة التي تولى فيها هذا الراهب رئاسة الدير، كانت أوروبا مشغولة عنه بتمويل الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ضد منطقة شرق المتوسط، مما أدى إلى إعطاء الحروب الأسبانية ضد المسلمين مكانة ثانوية. ولعل هذا ما حدا به إلى سلوك أسلوب المجادلة العقلية.

يقول أستاذ لاهوت الأديان «لودفيغ هاغمان»: (يعتبر رئيس كهنة دير كلوني بطرس المعروف بالمبجَّل «١٠٩٤ ـ ١١٥٦» أول من مهد الطريق للمجادلة العقلية مع الإسلام.

وقد استعان بطرس هذا بجملة من المستعربين في ترجمة بعض الأحاديث النبوية، وكتابة بعض المقالات والمحاورات المزعومة، كما وجه بنفسه خطاباً مفتوحاً إلى (العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل الذي يدعى محمداً)[1]. كما صنف كتاباً أسماه «دحض العقيدة الإسلامية» ضُم لاحقاً إلى ترجمات أتباعه، وعرفت المجموعة باسم «المجموعة الطليطلية» أو «فيلق كلوني» (وهي المجموعة التي

(1) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٢ ـ ٨٣).

صارت بالنسبة للأوربيين المصدر الرئيسي للمعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمائة عام تقريباً)[١].

وعلى الرغم من أن هذا اللون من المقاربة يراد به النقض والهجوم، إلا أنه يمثل تحولاً في الاتجاه العام لدى نصارى القرون الوسطى من مرحلة المهاترات والتلفيقات ونسج الأساطير والخرافات بغرض التنفير، إلى مرحلة متقدمة تعتمد التعرف على الخصم عن كثب، لمجادلته وإثارة الشبهات في وجهه. وقد نسج على منوال بطرس المبجل، فيما بعد، المستشرقون في القرون اللاحقة، كما لاحظ ذلك المستشرق جورافسكي، فقال: (يلاحظ أي باحثٍ موضوعي، أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواءً أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً، أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية)[٢].

ثالثاً: أسلوب الحروب الصليبية والاحتلال المسلح:

يمثل هذا الأسلوب الحملات الصليبية المنطلقة من غرب ووسط أوربا النصرانية إلى بلاد المشرق الإسلامي (سواحل الشام ومصر وآسيا الصغرى)، في سبع حملاتٍ متعاقبة استغرقت قرابة قرنين من الزمان (٤٩٠ ـ ٦٩٠هـ). بالإضافة إلى استمرار الزحف النصراني

(1) الإسلام والمسيحية (٨٤).

(2) الإسلام والمسيحية (١٠٥).

جنوباً على بقية الأندلس المسلمة، وبقية جزر البحر الأبيض المتوسط.

ويمكن أن يؤرخ لبدء الحملات الصليبية بالاجتماع الحاشد الذي دعا إليه البابا «أربان الثاني» في مدينة «كليرمون» في جنوب فرنسا، في نوفمبر من عام ١٠٩٦م، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين. وقد ألهب البابا حماس المجتمعين بخطبة بليغة مؤثرة، أثار فيها العصبية الدينية، بل والأطماع الدنيوية. واستجاب الحاضرون لنداءات البابا التحريضية، وصاحوا جميعاً في ذلك الحقل الفسيح صيحة مدوية صارت شعاراً في حروبهم المقبلة مع المسلمين قائلين: (الرب يريدها) أو (تلك إرادة الله). ثم شرع البابا أوربان الثاني يجوب أنحاء فرنسا للدعوة إلى حربه المقدسة. كما برز قادة كنسيون شعبيون من أمثال «بطرس الناسك» هجروا أديرتهم وتفرغوا لتهييج الفلاحين والفقراء لإنقاذ مهد المسيح ـ بزعمهم ـ، ودغدغة مشاعرهم بامتلاك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً[1].

وقد تجدد هذا الأسلوب في خريف الدولة العثمانية المريضة.والمتغير الوحيد في هذه المرحلة عن مرحلة الحروب الصليبية أن الحكومات الأوربية المتأثرة بالثورة الفرنسية (١٧٨٩م) العلمانية باتت أكثر دهاءً، وغزت المجتمعات الإسلامية بأسلحتها المتفوقة، تحت شعارات منمقة لا تحمل الطابع الديني الصليبي، بل تحاول أن تتجنب

(1) انظر: ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة. طبعة ١٩٩٣م. (١٠٨ ـ ١١١).

استفزاز المشاعر الإسلامية، وتتستر تحت لافتات سياسية مثل «الانتداب» و«الوصاية» و«الحماية». وقد آلت هذه الجولة إلى إبرام اتفاقية (سايكس ـ بيكو) سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وألف (١٣٣٦هـ ١٩١٦م) بين فرنسا وبريطانيا بشأن اقتسام المنطقة العربية المتبقية من تركة الرجل المريض ـ أي الدولة العثمانية ـ وهي العراق وسوريا الكبرى والخليج العربي وفلسطين والأردن، فضلاً عما تم التهامه من مناطق العالم العربي والإسلامي.

رابعاً: أسلوب التبشير «الدعوة إلى التنصر»:

ويمثل هذا الاتجاه الراهب الإيطالي فرنسيس الأسيزي «١١٨٢ ـ ١٢٢٦م». ويعده النصارى من أكبر قديسيهم، وإليه تنسب طائفة الرهبان الفرنسيسكان. وعمدتهم النص المنسوب إلى المسيح عليه السلام: (اذهبوا في العالم أجمع، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين) (إنجيل مرقس ١٥:١٦). وقد قام فرنسيس الأسيزي بنفسه بهذه المهمة، فقد صحب الحملة الصليبية السادسة الموجهة نحو مصر عام ١٢١٩م والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه إلى النصرانية[1].

ومن أشهر الرهبانيات التي انتهجت هذا الأسلوب، وكانت معاصرة من حيث النشأة للفرنسيسكان، طائفة الرهبان الدومينيكان التي أسسها الراهب الإسباني دومنيك «١١٧٠ ـ ١٢٢١م» وإليها ينسب «توما الإكويني» المتوفى سنة ١٢٧٤م، أكبر لاهوتي دومينيكاني.

(1) انظر: الإسلام والمسيحية (٨٧ ـ ٨٩).

ويقوم الفرنسيسكان والدومينيكان بذرع العالم، وبعث الإرساليات التنصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسهما في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن الدومينيكان قد أسسوا معهداً في القاهرة باسم «معهد الدراسات الدومينيكاني»، انبثقت عنه أولى جمعيات التقارب الديني في البلاد الإسلامية، وهي جمعية «الإخاء الديني» عام ١٩٤١م، كما عقدوا ندوة حوارية حملت اسم الأيام الدومينيكانية.

خامساً: أسلوب التقارب والحوار:

كان لسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بأيدي الفاتحين العثمانيين آثاراً بعيدة المدى على جميع المستويات، فقد اهتزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها لسقوط مدينة قسطنطين الكبير، وحطم ذلك البقية الباقية من كبريائها.

وقد ألف نيكولاي كوزاني كتابه «سلام الإيمان» في نفس العام الذي سقطت فيه القسطنطينية عام ١٤٥٣م. ثم ألف عام ١٤٦٢م (شرحاً نقدياً للقرآن الكريم «في غربلة القرآن» هادفاً إلى أن يباشر حواراً ينطلق مما هو مشترك بين المسيحيين والمسلمين)[1]. وتلا ذلك سابقة ملفتة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، حيث وجه البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ ـ ١٤٦٤م كتاباً إلى السلطان العثماني محمد الفاتح

(1) الإسلام. روجيه جارودي. (١٣٨ ـ ١٣٩).

يتضمن بحثاً في مسائل عقدية[١]، ودعوة إلى النصرانية، ولكنه كما وصف لودفيغ هاغمان: (تشتم منه رائحة اليأس)[٢].

وحين ظهرت حركة الإصلاح الديني «البروتستانتية» على يد مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م)، بدت وكأنها تتجه نحو الموضوعية في فهم الإسلام، مما أطلق عليه مارتن لوثر: «خرافات الأوربيين وجهالاتهم» حيال الإسلام[٣].

و(في عام ١٧٠٥ أصدر هادريان ريلاند «١٦٧٦ ـ ١٧١٨م» كتابه «الديانة المحمدية» الذي يعتبر أول عرضٍ موضوعي للإسلام من وجهة نظر مسيحية... قامت الكنيسة الكاثوليكية بإلقاء الحرم عليه ومنعه. وفي هذا العصر قدم غولتهولد أفرايم لسنغ (١٧٢٩ ـ ١٧٨١م) عمله الأدبي «ناتان الحكيم»، الذي وضعه بصيغة رمزية جواباً عن السؤال التالي: أي من الديانات الثلاث، اليهودية، والمسيحية والإسلام تعتبر الدين الحق؟)[٤].

ويرى جورافسكي أن (الإرهاصات الأولية، الممهدة فلسفياً ولاهوتياً للحوار الإسلامي ـ المسيحي، الذي نوقش رسمياً للمرة

---

(1) الإسلام والمسيحية. (٩٢).

(2) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي، مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٢٨).

(3) انظر:المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي.مجلة الاجتهاد(٣٠/ ٢٩)، والإسلام والمسيحية (٩٧).

(4) المسيحية والإسلام من التصادم إلى التلاقي. مجلة الاجتهاد (٣٠/ ٣١).

الأولى في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني) تمت على يد مفكرين بارزين:

أحدهما: الفيلسوف الروسي فلاديمير سولوفيوف «١٨٥٣ ـ ١٩٠٠»، الذي تدرج في فهمه للإسلام وسر ظهوره التاريخي، وشخصية نبيه محمد ﷺ وكانت ذروة أبحاثه في هذا المضمار في كتابه «محمد: سيرته وتعاليمه الدينية»، الذي ألفه قبل وفاته بأربع سنوات ١٨٩٦م، وفيه يرتقي إلى إثبات نبوة محمد ﷺ[1].

الثاني: المستشرق الفرنسي: لويس ماسينيون ١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م، الذي اشتغل بالدراسات العربية في دمشق والقاهرة، واستهواه التصوف، فكانت أطروحته في الدكتوراه في جامعة السربون بعنوان: (مأساة الحسين بن منصور الحلاج، شهيد الإسلام الزاهد)، وكتب عن ابن سبعين، الصوفي الأندلسي. واتجه إلى فكرة توحيد الديانات الكتابية الثلاث. (وفي رأي الدارسين، فإن مؤلفاته، وإسهاماته العلمية، ومنطلقاته الروحية، ونشاطاته السياسية مهدت الطريق للتحول الكاثوليكي الجذري بشأن الموقف من الإسلام)[2].

يقول الأب موريس بورمانس: (.. بفعل «مسيحيين نبويين» مثل: ميجيل أسين إي بلاسيوس، ولويس ماسينيون وغيرهما، تجددت نظرة الكنيسة إلى الإسلام، وصارت ترى فيه، علمياً ولاهوتياً، دين توحيد

(1) عن الإسلام والمسيحية: (١١٦ ـ ١١٧).
(2) الإسلام والمسيحية. (١٢٠ ـ ١٢١).

يرتبط بالدعوة الإبراهيمية... فكان لا بد أن يؤدي ذلك إلى إعلان المجمع الفاتيكاني الثاني ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م عن علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية، الذي أصبح للكاثوليك «شرعة الحوار الإسلامي المسيحي»[1].

(1) توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين: الأب: موريس بورمانس. أمانة السر للعلاقات بغير المسيحيين. ترجمة: المطران يوحنا منصور. المكتبة البولسية. بيروت- لبنان. الطبعة الأولى.

حقيقة (الحوار) عند النصارى

أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في مدينة «روما»، في الفترة الممتدة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م، عقال الكنيسة الكاثوليكية في نظرتها وتعاملها مع الآخرين المخالفين، من النصارى أتباع الكنائس الأخرى، وغير النصارى من اليهود والمسلمين، بل والوثنيين والعلمانيين.

فبعد ما يقرب من أربع سنوات من المداولات والمجادلات، بل والنزاعات بين التيار المحافظ والتيار التقدمي، تبنت الكنيسة الخيار التقدمي المنفتح على الآخرين، مما يعد «تطويراً لاهوتياً» في هذا المجمع. فبعد أن كانت الكنيسة ترى أنها وحدها تمتلك «الحقيقة المطلقة»، وأنه لا سبيل إلى «الخلاص» إلا عن طريقها، أبدت قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني مرونةً وتنازلاً عن هذه المعتقدات العتيدة التي كانت الأساس في القرون السابقة لقرارات الحجب والحرمان.

جاء في أول دساتير المجمع (الكنيسة:دستور عقائدي) فقرة ١٦: (...بيد أن تدبير الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد الرحمن الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر)[1].

وفي البيان المتعلق بعلاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية: (..والكنيسة الكاثوليكية لا تنبذ شيئاً مما هو في هذه الديانات حقٌ

(1) المجمع الفاتيكاني الثاني: دساتير، قرارات، بيانات (٥٢).

ومقدس، وتولي تقديرها باحترامٍ صادق هذه الطرق المسلوكة في العمل والحياة، وهذه القواعد والتعاليم التي وإن اختلفت في أمور كثيرة عما تقول به وتُعلِّمُه، تحمل غير مرة قبساً من شعاع الحقيقة التي تنير جميع الناس. غير أنها تبشر، ويجب أن تبشر بلا انقطاع بالمسيح الذي هو «الصراط والحقيقة والحياة» (يو ١٤:٦).

من أجل ذلك تحرض أبناءها على الاعتراف بالقيم الروحية والأدبية والاجتماعية والثقافية التي توجد عند أتباع الديانات الأخرى، والمحافظة عليها وإنمائها، وذلك بطريق الحوار والتعاون معهم، بمقتضى الفِطنة والمحبة، مع الشهادة للإيمان والحياة المسيحية).

وبعد هذا الانفتاح العام على الآخرين، والاعتراف بما لديهم من قيمٍ ومثل في سابقة ليس لها نظير في الخطاب الكنسي، يتوجه البيان إلى خصوصية المسلمين بهذه الدعوة فيتابع قائلاً: (وتنظر الكنيسة أيضاً بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله، الواحد الحي القيوم، الرحمن، القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده! كما سلم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه، وإنهم على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهاً، يكرمونه نبياً، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان! ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً.

ولئن كان قد وقع، في غضون الزمن، كثير من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين، فإن المجمع يحرضهم جميعاً على نسيان الماضي، والعمل باجتهاد صادق في سبيل التفاهم فيما بينهم، وأن يحموا ويعززوا كلهم معاً، من أجل جميع الناس، العدالة الاجتماعية، والقيم الروحية، والسلام والحرية)[1].

إن هذه الفقرات من دساتير المجمع الفاتيكاني الثاني وبياناته، لتمثل موقفاً عقدياً جديداً، تبني عليه طريقة عمل جديدة أيضاً. وهي تمثل أساساً متيناً لمشروع الحوار والتقارب بين الكنيسة والأديان الأخرى، وقاعدة انطلاق عريضة استند عليها الناشطون من دعاة التقارب والحوار منذ ذلك الحين. ولكنه في الوقت نفسه أثار معضلة كبيرة؛ معضلة العلاقة بين الحوار والبشارة، ومحاولة التوفيق بينهما.

وفي فترة البابا يوحنا بولس الثاني كثر الحديث عن قضية الحوار، والعلاقة بين الحوار والبشارة، واستضاف «الفاتيكان» العديد من اللقاءات الدينية المنوعة، وشارك في الكثير من مؤتمرات التقارب والحوار، وأصدر الوثائق والإرشادات المتعلقة بقضية الحوار والبشارة، وأكد البابا بنفسه على تبني الحوار مع الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، انطلاقاً من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه وضع الحوار في إطار المهمة الأساسية للكنيسة، وهي التبشير. فمع عناية البابا بالحوار واستمراره، كقوله في رسالة الفادي: (المؤمنون جميعهم،

---

(1) المجمع الفاتيكاني الثاني (٦٢٩ ـ ٦٣١).

والجماعات المسيحية كلها، مدعوون إلى ممارسة الحوار... إن الحوار هو الطريق إلى الملكوت)[١]، إلا إنه في خطابه الموجه إلى أعضاء الجمعية العمومية للمجلس البابوي للحوار بين الأديان المنعقد عام ١٩٧٨م يجعله قسيماً توأماً للتبشير، فيقول: (.. كما أن الحوار بين الأديان هو مادة من مواد رسالة الكنيسة، فإن إعلان عمل الله الخلاصي في سيدنا يسوع المسيح هو أيضاً مادة أخرى... وإنه من غير الجائز أن يختار الواحد، ويتجاهل الآخر، أو يطرح)[٢].

ولعل سر احتفاء البابا يوحنا بولس الثاني بالحوار، هو أنه يرى فيه معبراً ثقافياً ينفذ التبشير من خلاله إلى أعماق الحضارات الأخرى، بعد تأنيسه بالحوار، وذلك ما اصطلح الكنسيون على تسميته بالغرس الثقافي للمسيحية المستنبت في تربة ثقافات أخرى. يقول البابا في الإرشاد الرسولي المعنون بـ «تبليغ التعليم الديني»: (إن رسالة البشارة متضمنة في الثقافة الإنجيلية التي لا يجب أن تنفصل عنها. إنها تنتقل عبر حوار رسولي متضمن بالضرورة في حوار ثقافي بعينه. إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد، لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل

(1) رسالة الفادي: البابا يوحنا بولس الثاني. اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام. جل الديب ـ لبنان. صدرت في روما ١٩٩٠م. (٩٠).
(2) عن حوار وبشارة (١٠).

أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات، وعندئذٍ فإن التعليم الديني سيتأصل في مختلف الثقافات، ويضفي كمال المسيح على قيمها الشرعية)[1].

وفي هذا القدر تفسير وبيان لطبيعة «الحوار» الذي ينشده راعي الكنيسة الكاثوليكية، إنه الحوار المتدسس الذي لا يعني في الحقيقة معنى التبادل، والاستعداد للتغيير، والتجرد، والمجازفة، من طرفي الحوار كما كانت الكنيسة تدعي ذلك عقب المجمع الفاتيكاني الثاني، ولكنه الحوار الذي يشترط مسبقاً أنه: (لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات).

إن الحوار في نظر البابا عملية نفسية يخضع لها المحاور الآخر، فيتعرض لحالة اهتزاز قيم، وزلزلة ثوابت تنتج «الارتداد» الذي يوصل في نهاية المطاف إلى اعتناق موقفٍ عقدي جديد. ويصف البابا يوحنا بولس الثاني هذه العملية بقوله: (إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو ـ نوعاً ما ـ أداة، وعلى الأخص طريقة للقيام بعملها في عالم اليوم... إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل، وتوحيد البشر بروحٍ واحد... وفي الواقع إن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكي تحسن حمل الناس ـ سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان، أم هم غرباء عنها ـ على الارتداد والتوبة، عن

(1) نقلاً عن: تنصير العالم. (مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني): د. زينب عبد العزيز. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة ـ مصر. الطبعة الأولى (١٤١٥هـ -١٩٩٥م). (١٠٧).

طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديداً عميقاً في ضوء سر الفداء والخلاص...إن الحوار الصحيح يرمي إذن، بادئ بدء، إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطني والتوبة مع احترام كل الضمائر)[1].

إن نظرة شاملة لمسيرة الكنيسة الكاثوليكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة التالية لمقررات المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م) حول قضية الحوار مع الإسلام تكشف عن ثلاث مراحل متميزة:

١ ـ المرحلة الأولى: وهي التي أعقبت المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي قدم المسوغ اللاهوتي للحوار، عن طريق توسيع عقيدة الخلاص، وهجر الدعوى الكنسية القديمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»، والتخفف من لوازم عبارة إنجيل يوحنا القائلة: «أنا الطريق والحق والحياة».

٢ ـ المرحلة الثانية: تمثل هذه المرحلة تنامي ردود الفعل المضادة للانفتاح على الديانات والتقاليد الأخرى، واعتبار أسلوب «الحوار» و«التقارب» خيانة لرسالة الكنيسة وتخلياً عن البشارة. هذا من جانب النقد الذاتي داخل الأسرة الكاثوليكية، لكن صاحب ذلك ما يشبه «خيبة الأمل» و«الإحباط» تجاه التجاوب الإسلامي مع دعوة الحوار، فنصارى الحوار فضلاً عن معارضيه، لم يجدوا بغيتهم التي تلبي طموحاتهم في مسلمي الحوار فضلاً عن معارضيه، وهذه المرحلة واكبت السنوات الأولى من سيامة يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان.

---

(1) عن المرجع السابق، (١٠٩).

٣ ـ المرحلة الثالثة: وهي الفترة الممتدة من أواسط الثمانينيات وحتى وقتنا الراهن. وتتسم باستمرار التأكيد على أهمية الحوار من الناحية الإعلامية والمظهرية، ولكن باعتبار الحوار جسراً لنقل الثقافة الإنجيلية إلى الآخرين، أو ما صار يسمى «بالغرس الثقافي». وهذه المرحلة أعقبت رحلات البابا يوحنا بولس الثاني لأجزاء من العالم الإسلامي، ولقائه بمسلمين في آسيا وأفريقيا وأوربا على مدى أربع سنوات (١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م). وعاد بلا ريب مقتنعاً بعدم كفاءة أمانة السر الفاتيكانية للعلاقات بغير المسيحيين التي كان يشغلها إذ ذاك رئيس الأساقفة جان جادوت، في تفعيل الحوار الهادف إلى نشر النصرانية، فكان أن عين الكاردينال الأفريقي الأصل فرانسيس آرينزي في ذلك المنصب ليرضي طموحه، وفق النظرة الجديدة للحوار. ومن الملاحظ في هذه الفترة تكثيف النشاط التنصيري، واستخدام كافة وسائل التقنية الحديثة لتنصير العالم ومن أخطرها مشروع Lumen 2000، أي نور سنة ٢٠٠٠م، وهو القمر الصناعي المخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية:

هذه المرحلة أخطر مراحل الحوار الذي تمارسه الكنيسة الكاثوليكية، حيث تمطر الآخرين بعبارات ذات مدلولٍ فارغ تخدرهم فيها، وتصرف أنظارهم عن الاشتغال بما يهمهم حقاً، في الوقت الذي تستنفد فيه كافة السبل والوسائل للتبشير، والغرس الثقافي طويل الأمد، تحت ستار «الحوار» الطعم.

وبإزاء الكنيسة الكاثوليكية، يمثل مجلس الكنائس العالمي الطوائف النصرانية غير الكاثوليكية، ويتمتع بنفوذٍ واسع يضاهي نفوذ «الفاتيكان»، وتنضوي تحته جميع الكنائس البروتستانتية، والإنجليكانية، والأرثوذكسية، التي يبلغ عددها ثلاثمائة وست عشرة كنيسة موزعة على أكثر من مائة بلد، ويتبعها قرابة أربعمائة مليون نصراني.

لقد لفتت مبادرات مجلس الكنائس العالمي للتقريب بين الأديان الأنظار في أواخر الستينيات، وطوال السبعينيات الميلادية، بتتابعها، وانتشارها في أصقاع متنوعة من قارات العالم القديم. فقد عقد المجلس أكثر من خمسة عشر لقاءً دولياً أو إقليمياً خلال عشر سنوات، موزعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا. ولكن هذا النشاط الدائب لم يكن يخفي وراءه وضوحاً في الرؤية، ومضاءً في العزيمة. بل كان سلسلةً من التجارب المشبعة بروح المغامرة، والرصد لانعكاسات التقارب على الحركة المسكونية.

لقد واجه المجلس معضلة العلاقة بين «الحوار» و«البشارة»، وبعبارة أدق: بين «التقارب» و«التنصير»، بصورة أعنف مما واجهته الكنيسة الكاثوليكية.. ويمكن أن نميز ثلاث مراحل:

١ ـ المرحلة الأولى: مرحلة الدراسة، وقد ابتدأت في وقتٍ مبكر إثر انعقاد المجلس عام ١٩٥٥م، حيث شكل مشروعاً دراسياً بعنوان: «كلمة الله والأديان الحية للبشر»، استمر حتى مطلع السبعينيات. وكانت حصيلته الدعوة إلى الانفتاح والحوار مع الإسلام، ومجاراة ما كان سائداً في النصف الثاني من الستينيات إثر المجمع الفاتيكاني

الثاني. وكانت ذروة هذه المرحلة مؤتمر «كارتيني» عام ١٩٦٩م، الذي رأى ضرورة الحوار لحمل الديانتين على تأمين الاحترام المتبادل وتعزيز التفاهم. وفي ذات العام أنشئت وحدة الحوار.

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة التجربة العملية: وقد استهلت بإصدار الإرشادات لشرح سياسة وحدة الحوار مع معتنقي الأديان والمثل الحية عام ١٩٧١م وفيها يوصف الحوار بأنه اضطراري، ومستعجل، ومملوء بالفرص، ومع ذلك يعترف المجلس أنه لا يوجد لديه رأي موحد، وأن ممارسة المجلس للحوار مغامرة.

٣ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة حوار البشارة: تبتدئ هذه المرحلة عام ١٩٧٩م، إثر صدور إرشاداتٍ بشأن الحوار في اجتماع اللجنة العامة للمجلس في جامايكا. فقد عُرِّف الحوار بأنه ليس مجرد نشاط اجتماعات ومؤتمرات بل أسلوب حياة للإيمان النصراني، مرتبط بالجيران، يؤدي فيها المحاور الشهادة، ويتذرع بجميع الوسائل الحديثة للوصول إلى مستمعيه.

ومن ثم فقد انحسر عدد المؤتمرات التي يرعاها المجلس بين الأديان بصورة ملحوظة إلى حد إلغاء وحدة الحوار، وإدراجها ضمن إطار العلاقات الدولية للمجلس، فقد استفرغ المجلس وسعه، في السعي لاستغلال الحوار ـ من حيث هو حوار ـ للتنصير، فلم يأت بطائلٍ يرضي طموحه، فاستبقى الاسم ستاراً لمشاريعه، وفرَّغه من المضمون.

أما المرحلة الراهنة فعلمها عند الله، لكن رؤية المنحنى المنحدر يشي بشيءٍ من معالمها الذي سيسفر عن الوجه الكالح للصليبية

الجديدة. ولا أدل على ذلك من الاستهزاء العلني الذي تديره الآلة الإعلامية الكبرى في الغرب النصراني ضد قيم الإسلام، ونبيه، وكتابه، ورموزه، كما أبصره الناس في الرسوم المسيئة إلى شخص نبينا محمد ﷺ، وجرى دعمه وإسناده من بعض القوى السياسية والدينية الغربية، أو تجاهله وعدم إدانته من آخرين.

ثم طفح الكيل حين فاه البابا بينديكت السادس عشر، في محاضرة ألقاها في جامعة (ريغبنسبورغ) الألمانية، يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦، بهجومه البذيء على الإسلام ونبيه، في سابقة هي الأولى من نوعها بعد قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني، مما يدل على أن القوم نفد صبرهم، شعروا منهم أن الإسلام يتقدم، ويكتسب أفراداً ومواقع جديدة، وأن لعبة (التقارب) لم تعد مجدية، والبساط يطوى من تحتهم، والأرض تنقص عليهم من أطرافها، لا بل في عقر دارهم!

تقويم تجربة الحوار

على مدى نصف قرن من الزمان جرت في أركان الأرض الأربعة:

١- مئات المؤتمرات،والندوات،والملتقيات، ضمت مشايخ وأساقفة وحاخامات وكهنة.

٢- أسست عشرات المعاهد والمراكز المتخصصة في قضايا الحوار.

٣- طبعت آلاف الكتب، والبحوث، والدوريات.

٤- بنيت مجمعات الأديان، التي تضم مسجداً، وكنيسةً، وكنيساً، ومعبداً وثنياً.

٥- أقيمت الصلوات المشتركة، بين أتباع الديانات المختلفة برعاية البابا.

وباستقراء الكم الهائل من هذا النشاط، نسجل الحقائق التالية:

أولاً: دعوة (الحوار الإسلامي النصراني) بصورتها السائدة غربية المولد والمنشأ، ترعرعت في حجر النصارى الغربيين، على اختلاف طوائفهم. وانطلقت مبادراتها الأولى من المرجعيتين الكبريين لنصارى العالم: الكنيسة الكاثوليكية، ومجلس الكنائس العالمي، وأسس كل منهما دائرة مستقلةً للحوار مع غير النصارى.

ثانياً: جرت هذه الفعاليات في وضع غير متكافئ ؛ حيث الجانب النصراني هو الأقوى سياسياً، وعسكرياً، وتخطيطاً. بينما الجانب الإسلامي يتخبط في مشاكله المتنوعة، ولا يملك المحاورون أهدافاً واضحة، ويفتقرون إلى الكفاءة العلمية، والتخطيط.

ثالثاً: تم تغييب الهدف الإسلامي الأصيل من الحوار، المتمثل في قوله تعالى: {قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤]، والمجاهرة بأنه: (لا حوار في قضايا الاعتقاد) ! والاكتفاء بالبحث عن أوجه الاتفاق، وإقصاء أوجه الافتراق، والاشتغال بقضايا فرعية باهتة.

رابعاً: كانت أهداف (التقارب) لدى النصارى في مبدأ الأمر: استغلال المسلمين للوقوف في وجه المد الشيوعي الزاحف على مختلف مناطق العالم، وخطف البريق الإسلامي الذي سطع على العالم المنفتح بعد الحرب العالمية الثانية، بالتمظهر بزمالة الأديان وتساويها، ثم آل الحال إلى استخدام الحوار وسيلة للبشارة والتنصير.

خامساً: لم يحِدِ النصارى قِيد أنملة عن معتقداتهم، فلم ينتهوا عن قولهم «ثلاثة»، ولا عن غلوهم في الدين، وأصروا على إنكار نبوة محمدٍ ﷺ. وحقيقة الحال أن النصارى يريدون من غيرهم أن يقتربوا منهم فحسب، ولا يقابلون ذلك إلا بمظاهر جوفاء، وبياناتٍ إعلامية، يتسللون من خلالها إلى أتباع الديانات الأخرى. قال تعالى: {هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ} [آل عمران: ١١٩].

ومن شواهد ذلك:

أ ـ إصرار النصارى على الجهر بعقائدهم الباطلة في ملتقيات التقارب:

لم تحمل المجاملة آباء الكنيسة على مراعاة محاوريهم أو مضيفيهم من دعاة التقارب من المسلمين، بل صدعوا بكفرهم وتثليثهم بين ظهراني المسلمين دون مواربة، ومن أمثلة ذلك:

كلمة البابا يوحنا بولس الثاني في الدار البيضاء بالمغرب، التي حشد له فيها عشرات الآلاف من الشبان والشابات المسلمين، الذين حملتهم الحافلات على حين غرة من مدارسهم وجامعاتهم، حتى غصت بهم مدرجات «الاستاد» الرياضي، في ١٩ أغسطس عام ١٩٨٥م. ومما جاء فيها قوله: (إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع في اعتقاد المسيحيين هو الذي يدخلهم في معرفة حميمة للذات الإلهية التي تفوق كل إدراك بشري، وفي نوعٍ من الاتحاد الابني بعطايا الله ومواهبه، ولذلك فهم يشهدون أنه هو الرب والمخلص)[1]. ثم ختم كلمته الطويلة بابتهال.

كلمة رئيس أساقفة أسبانيا الكاردينال الكاثوليكي، أنريكي ترانكون، في مؤتمر (التقدير الإيجابي لمحمد وعيسى في المسيحية والإسلام) المعقود في قرطبة عام (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) حين خاطب المؤتمرين قائلاً: (إن عقيدتنا في التثليث لا تنقص شيئاً من ذلك التأكيد القاطع المطلق، من ذلك الإيمان الذي ينبغي لإخواننا المسلمين أن

---

(1) دراسات إسلامية مسيحية (٨). أو: وثائق عصرية في سبيل الحوار بين المسيحيين والمسلمين. (١٩٦).

يعترفوا لنا به، فنحن كذلك نرفض الشرك مثلهم، ولا نرضى أن نتهم بأننا نشرك مع الله آلهة أخرى...بجانب ذلك نؤمن بأن لعيسى صبغة إلهية... تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين الله وهذا الإنسان، هي بالنسبة لنا أيضاً سر لا يدرك،واستناداً إلى نصوصنا وتقليدنا، العقيدي، نعبر عن الوحدة الإلهية بالتثليث) [١].

ب ـ إصرارهم على إنكار نبوة محمد ﷺ:

لقد أبى النصارى الزاعمون أنهم يسعون إلى التقارب مع المسلمين مجرد التسليم بنبوة محمد ﷺ، حتى ولو لم يتبعوه، كما يؤمنون بعامة أنبياء بني إسرائيل. فحينما انعقد مؤتمر (التقدير الإيجابي لمحمد وعيسى في المسيحية والإسلام) في قرطبة عام (١٣٩٧هـ ١٩٧٧م)، كان المتوقع من جهة غير كنسية «جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية» أن تعلن اعترافها بنبوة محمد ﷺ، ولكن «التقدير الإيجابي» لم يبلغ هذا الحد، وأفصح الأب جاك جوينيه عن السر الأثيم في ذلك بقوله: (إن الاعتراف بمحمدٍ نبياً يعني الاعتراف بكل ما يتضمنه القرآن، وبالتالي بأن محمداً خاتم المرسلين وخاتم الأديان. وهذا لا يعتبر سوى إلغاء لإنجيل المسيح) [٢].

سادساً: المضي في تضليل الخلق بما يسمونه «التبشير»، مستغلين الفاقة المعيشية، والصحية، والأمنية، لكثير من شعوب العالم الثالث ـ وغالبيتهم

(1) مجلة العربي عدد (٢٢٣) يونيو ١٩٧٧م (٤٦).
(2) مجلة العربي عدد (٢٢٣) يونيو ١٩٧٧م (٤٤).

مسلمون ـ ولتحقيق مكاسب جديدة، ومواطىء أقدام لمنصريهم، وإقامة كنائسهم، تحت شعار التقارب والحوار والتسامح.

سابعاً: موالاة بعضهم بعضاً، وموالاة اليهود، والمشركين، على الظلم والعدوان ضد المسلمين، في فلسطين، والبوسنه، وأندونيسيا، والفلبين، وغيرها.

ثامناً: دلت النصوص الشرعية القاطعة على بطلان «دعوة التقريب بين الأديان»، لأن دين الله واحد هو الإسلام الذي ابتعث الله به محمداً ﷺ، وما سواه إما باطلٌ أو منسوخ. فمن رام التقريب بينه وبين غيره، فقد رغب عن ملة إبراهيم، وابتغى ديناً غير دين الإسلام، وطعن في صدق محمدٍ ﷺ وعموم رسالته، وأنكر هيمنة القرآن على الكتب السابقة، ونسخه لأحكامها، وخالف إجماع المسلمين، واتبع غير سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين. وكلها لوازم لا محيد لدعاة التقريب عنها. وفسادها معلومٌ من الدين بالضرورة. وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، وبطلان الفرع يعود على الأصل بالإبطال.

تاسعاً: دل الواقع العملي المشاهد، خلال فوعة دعوة التقريب بين الأديان في العقود الخمسة المنصرمة على ظهور بعض النتائج والآثار الملموسة، الناجمة عن تجربة التقريب، مثل:

١- التسوية بين كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، القرآن، والكتب المحرفة المنسوبة إلى أنبياء الله، التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم، ووصفها جميعاً بـ «مقدسة» و«سماوية» و«كلام الله».

٢- التسوية بين بيوت الذكر والرحمة؛ المساجد، وبيوت العذاب والشرك، من معابد اليهود والنصارى والمشركين، ومشاركتهم في صلواتهم، واحتفالاتهم الدينية.

٣- إقامة المؤسسات البحثية المشتركة بين الأديان، بغرض تنقية المناهج الدراسية، والوسائل الإعلامية من النقد المتبادل، ورفع الأحكام العقدية والشرعية في شأن أهل الكتاب، واستلال اعترافات صريحة وضمنية من نظرائهم المسلمين على صحة دينهم وكتبهم، وإعادة عرض الإسلام بصورة مشوهة خداج، كالتصوف الباطني.

الضوابط والتوصيات

١ ـ عقد المؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية للدعوة إلى كلمة سواء:

امتثالاً لأمر الله تعالى: {قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٦٤]، وتأسياً بهديه ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب مشافهةً؛ بالجدال والمحاجة والمناظرة، ومكاتبةً لعظماء أهل الملل، واتباعاً لسبيل المؤمنين السابقين في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، واستغلالاً للفرصة النادرة، والإمكانات المتاحة في كثيرٍ من الدول الغربية، التي تسودها أنظمة ديموقراطية، تسمح بحرية التعبير عن الرأي، ومخاطبة الجمهور بالوسائل الأدبية اللائقة، دون إثارةٍ أو اعتداء.

فينبغي للهيئات الإسلامية الموثوقة، أن تسعى في هذا السبيل القاصد، والمحجة البيضاء، وألا تضيع جهودها وإمكاناتها، وجهود العاملين معها، فيما لا طائل من ورائه، أو ما فائدته قليلة، بجنب مشاريع الدعوة الإسلامية الصريحة.

٢- المشاركة الإيجابية في المؤتمرات والمنتديات الدينية، بالصفة الشرعية المتميزة:

ثم موقفان من المسلمين حيال المشاركة في ملتقيات الحوار الديني التي تدعو إليها جهات كنسية، أو منظمات دينية نصرانية ـ غالباً ـ وهما:

أ ـ **الرفض المطلق**، والإعراض التام، بل وإدانة جميع صور المشاركة، بحسبانها لوناً من ألوان المداهنة، والاستدراج والفتنة عما أنزل الله. لصدور تلك المبادرات من جهاتٍ لا تألوا جهداً في صد المسلمين عن دينهم، والكيد لهم.

وقد تبلور هذا الموقف إثر الممارسات،التي كشفت الغبن والغرر الذي حاق بالمسلمين، دون تحقيق شيءٍ من المقاصد الشرعية، في مقابل المكاسب والغايات التي جناها الطرف الآخر.

ب ـ **القبول المطلق**، والاسترسال التام مع داعي هذه المؤتمرات والندوات، دون قيدٍ أو شرط، والتساهل والمجاملة الزائدة مع المخالفين، وموافقتهم على رسومهم التي رسموها لسير الحوار، والحدود التي أقاموها، وأقنعوا رصفاءهم بعدم تخطيها، كالبحث في مسائل الاعتقاد، وعدم الجهر بكلمة الحق، وكشف الباطل، ضمن تعليلات مصلحية فاسدة.

ولا شك – والحال هذه – أن الموقف الأول هو الحق الذي يجب لزومه، والعض عليه بالنواجذ، حرصاً على نقاء الدعوة، وسلامة المنهج، والبعد عن مواطن الريب. ولكن لا تجوز الصيرورة إليه حتى يثبت ثبوتاً أكيداً تعذر البلاغ، وإقامة الحجة، في مثل هذه المنتديات، ورفض الجهات الداعية المنظِمة السماح للمحاورين المسلمين من إعلان ما يريدون، ونقد ما يسمعون.

ذلك أن الرفض والامتناع موقف سلبي. ويمكن أن يتخذه أعداء الإسلام مغمزاً أو مطعناً في الإسلام وأهله، من وصفهم بالجبن

والتخاذل عن المواجهة، أو وصمهم بالشعور بالنقص، وعدم القدرة على التعايش مع مستجدات العصر، أو رميهم زوراً وبهتاناً بالتعصب، ونبذ الآخرين، وعدم اعتماد أسلوب المحاورة بالحجة، وعدم احتمال سماع «الرأي الآخر»، وأنه لم ينتشر سابقاً إلا بحد السيف والإكراه.

وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا المحذور، في معرض رده على من قال إن: (آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف) فقال: (الوجه الثامن: إن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته، إنما أقاموا دينهم بالسيف، لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف)[1].

وقد جاء في قرارات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في دورته الثامنة عشرة عام ١٣٩٦هـ، البند التاسع عشر، ما يلي: (درس المجلس الدعوة التي تلقتها الأمانة العامة، للاشتراك في المؤتمر المسيحي الإسلامي، الذي ينظمه مجلس الكنائس العالمي في جينيف في يناير ١٩٧٧م، وقرر:

١- الموافقة على الاشتراك في هذا المؤتمر، وغيره من المؤتمرات المماثلة، بشرط أن يكون المقصود من ذلك بيان الحق الذي بعث الله

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٢٤٤).

به نبيه محمداً ﷺ، وبطلان ما سواه من الأديان.

٣- أن يتولى تمثيل الرابطة فيها العلماء المختصون بالمواضيع المطروحة في جدول أعمالها) [1].

وأحسب أنه لو جرى الالتزام بهذين الشرطين لتحقق نفعٌ عظيم، ولأفضى الحال إلى بينة من الأمر؛ فإما القبول بالحق والرضى بالإسلام، وإما النكوص، والكف عن الدعوة إلى مثل هذه المنتديات، واستغلالها في أغراض الصد عن سبيل الله، وتغطية أعمال التنصير.

٤ ــ التقويم المستمر لمسيرة الحوار، وتبادل الخبرات بين الجهات الإسلامية:

إن من الضرورة بمكان، أن يتلاقى المعنيون من الجهات والهيئات الإسلامية المعتبرة للتشاور حول جدوى الحوار وتقويم مسيرته. وتبادل الخبرات، وثمرات التجارب السابقة، ثم اتخاذ القرارات حول المضي فيه إن كان يحقق المقاصد الشرعية، أو التوقف إن كانت الأخرى، وأن يتم ذلك في ضوء العقيدة الإسلامية، والسياسة الشرعية.

إن مستوى التخطيط، والتنسيق، وتبادل الخبرات، بين الجهات الإسلامية خلال العقود الماضية أقل من الحد الأدنى. ولا ريب أن لبعض الجهات، الإسلامية المعتبرة، مثل رابطة العالم الإسلامي، والأزهر، ووزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية في العديد من البلدان الإسلامية تجاربها الخاصة، وتوصياتها، ولكنها لم ترتق بعد إلى

(1) محضر قرارات الدورة الثامنة عشرة (١٤).

درجة الموقف الموحد، والنضج التام، من أصل القضية وتضاعيفها. وذلك يحتم أن تلتئم هذه الجهات، مسترشدة بالمنهج الشرعي الرصين، مستفيدة من تجارب الماضي، وتصدر عن رؤية شرعية واحدة.

٥ ـ الاهتمام بالأقليات الإسلامية في أنحاء العالم:

وهؤلاء في الحقيقة رسلٌ للإسلام إلى أهالي تلك البلاد، بحكم استعلانهم باعتناق هذا الدين، ومرايا عاكسة لعقيدته وشريعته في سلوكهم الشخصي، ووضعهم الاجتماعي. ولَكَم كان هؤلاء سبباً مباشراً، أو غير مباشر لاعتناق آخرين دين الإسلام. إما بالدعوة الصريحة، أو بالقدوة الحسنة، والسلوك الحميد.

وكثير من هؤلاء المسلمين القلة في بلاد الكفار، يعانون من الجهل والقطيعة من بقية إخوانهم المسلمين، مع معاناتهم الأصلية من العيش بين ظهراني الكافرين، والتأثر والخضوع لأعرافهم الاجتماعية، وقوانينهم المدنية. فينبغي للمؤسسات الإسلامية، الدعوية والخيرية، التواصل مع تجمعات المسلمين في سائر دول العالم، في الجوانب التالية:

أ ـ توعيتهم وتعليمهم أمور دينهم، عن طريق بعث الدعاة إلى الله، وإقامة الدورات الشرعية، وتزويدهم بالكتب وغيرها من أوعية العلم، باللغات التي يحسنون، ومنح الفرص لأبنائهم لتلقي الدراسات العليا في الجامعات الإسلامية.

ب ـ عمارة المساجد لهم، والمدارس الإسلامية لأبنائهم، والمراكز التي تقوي رابطتهم، وتحول ـ بإذن الله ـ دون ذوبانهم في المجتمعات التي يعيشون فيها.

ج ـ السعي لدى حكوماتهم، لمنحهم كامل حقوقهم المدنية، وحرياتهم الدينية، في اللباس والأعياد وغيرها، والاعتراف بمؤسساتهم، وروابطهم، ومدارسهم، ودعمها أسوة ببقية الطوائف، وتسهيل أمورهم المدنية والحقوقية.

٦ـ قيام الجامعات الإسلامية، والمعاهد الشرعية بإحياء فن المناظرات، والمجادلة بالتي هي أحسن، وتأهيل الدعاة والمحاورين للقيام بواجب الدعوة والبلاغ: فمما يلاحظه المتتبع أن كثيراً من الجامعات الغربية، وكليات اللاهوت، والمعاهد التنصيرية العريقة، تضم أقساماً للدراسات الإسلامية، ومراكز للحوار الديني، وتقوم بعقد المؤتمرات المتتالية، بل ثم مراكز ومعاهد مستقلة أنشئت في مواقع عدة من العالم لهذا الغرض. فحري بالجامعات الإسلامية أن تولي هذا الأمر حقه من الاهتمام والرعاية، وفق المناهج الشرعية المعتبرة، دون محاكاة الأنماط الغربية.

ومن المشاريع المقترحة في هذا الصدد:

أ ـ إحياء التراث الإسلامي الحافل في باب المناظرة والجدل مع أهل الكتاب، تحقيقاً ودراسةً، في أقسام الدراسات العليا، ومراكز البحوث.

ب ـ رصد المستجدات من الاتجاهات الحديثة داخل الملل الأخرى، وأهدافها ووسائلها.

ج ـ تأسيس أقسام للدعوة، وتخريج الدعاة المؤهلين لمحاورة أهل الكتاب وغيرهم.

وبهذه الوسائل وأمثالها، يمكن للأمة الإسلامية أن تقوم بالمهمة التي شرفها الله بها، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله،

وإخراج العباد، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، بما من الله به عليها من إكمال الدين، وإتمام النعمة، والرضى لها بالإسلام ديناً.

نسأل الله أن يعز دينه، وأن يعلي كلمته، وأن يصلح حال المسلمين، إنه ولي ذلك، والقادر عليه. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.